الفصل الخامس

بديع الزمان النورسي والقضايا الشائكة في تاريخ المسلمين

- قضيتا الغدير والخلافة ومحاولة حقيقية للتقارب بين السنة والشيعة
- سعيد النورسي.. والموقف من الحكام
  - النورسي نموذج للتعامل مع الحكام المنحرفين
- ضوابط السلوك الإسلامي الصوفي في فكر النورسيّ
  - توحيد المنهج والغاية بعد توحيد القبلة
- خروج بعض الصوفية عن الشريعة الإسلامية... الأسباب والعلاج
  - مدارج الانحراف

بديع الزمان النورسي
والقضايا الشائكة في تاريخ المسلمين

في بحث سابق وجيز كتبناه تحت عنوان: "بعض مقومات رؤية بديع الزمان النورسي لحركة التاريخ" عرضنا لبعض خصائص الرؤية النورسية لوقائع التاريخ وتفسيره.

بيد أننا -عندما شاء الله أن نغوص في فكر النورسي بطريقة أكثر وأعمق- اكتشفنا أن هناك أبعاداً كثيرة تتصل بجهود بديع الزمان في تأصيل النظرة المنهجية الموضوعية لكثير من وقائع التاريخ الإسلامي التي اختلطت الآراء في تفسيرها.

ومن هنا وجدنا لزاماً علينا أن نتتبع هذه القضايا الشائكة التي قدّم النورسي فيها تفسيراً جديداً وتقويماً عادلاً، ورؤية كفيلة بحل كثير من الألغاز، وتحقيق كثير من المنافع للأمة الإسلامية في ظروفها المعاصرة دون أن يكون النورسي -كما سيتجلى لنا في ثنايا البحث- متحيزاً لطرف من الأطراف أو لرأي مسبق من الآراء.

ومن هذه القضايا: "مهمة آل البيت في التاريخ ومكانتهم الحقيقية"، أو بتعبير آخر: حقوقهم وواجباتهم، دون إفراط أو تفريط، انطلاقاً من نصوص الكتاب والسنة، ومن دورهم الواقعي في التاريخ الإسلامي.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن الأستاذ النورسي من أفضل من قدموا حلولاً عادلة متوازنة لهذا الصراع القديم الجديد المعروف بالنزاع بين أهل السنة والشيعة حول الأئمة الأربعة ومكانتهم.

وقد قدم الأستاذ لمحة طيبة، عندما فرق بين شيعة الولاية، ومعظمهم من أهل السنة، وشيعة الخلافة، وهم أهل التشيع المذهبي الذين يختلفون مع

جمهور الأمة في رؤيتهم، ويختلفون حتى مع الإمام عليّ نفسه ﷺ.

ومن القضايا التي عالجها الأستاذ أيضاً ووقفنا عندها: مكانة الصحابة عموماً في التصور الإسلامي الصحيح؛ فقد ذكر الشيخ أنهم أفضل بني الإنسان بعد الأنبياء عليهم السلام، وهو بهذا يردّ –ضمناً- على الذين يحاولون الانتقاص من قيمة هؤلاء الصحابة.

ونحن نرى أنه يدخل في قضايا تفسير التاريخ -وسنثبت ذلك في ثنايا البحث إن شاء الله- معالجة الأستاذ النورسي لأسباب هزيمة أهل الهداية في كثير من الأحيان أمام أهل الضلالة.

وكيف أن قسماً من أهل المدينة أصروا على الضلالة على الرغم من أنهم كانوا يجاورون الرسول الأعظم ﷺ.

وأيضاً: لماذا لم تعتمد دعوة الرسول ﷺ في كثير من الأحيان على المعجزات الحسية، وما صلة هذا بالفقه الإسلامي لحركة التاريخ.

وكيف أنه من الضروري -في فقه حركة التاريخ من منظور إسلامي- أن نؤمن بالغيب "والغيب ليس الأسطورة، بل هو ضدها" ومن الغيب الإيمان بالملائكة والجنة والشياطين، والوعيُ بأدوار هؤلاء في صناعة الإنسان المسلم لحضارته الملائكية المحارِبة لشياطين الإنس والجن حرباً ذات ثبات وديمومة.

ويدخل في هذا أيضاً علاقة عالم الإنسان الصغير بعالم الكون الكبير، ودلالة هذا على وجود قوىً سماوية تتدخل في عالم الإنسان؛ بل إن الكون كله بما فيه من عناصر وموجودات يتفاعل مع الإنسان المسلم كما تفاعلت الأمطار والرياح والجبال مع كثير من الأنبياء والصالحين؛ لأن الكفر والشرك والضلالة إيقاعات نشاز في عالم الكون كله، وهي تنشئ احتجاجات كونية شاملة.

ويعزو الأستاذ النورسي انتصار الباطل أحياناً إلى قاعدةِ سهولة الهدم، والى الأساليب الخسيسة التي يترفع المسلمون عن استعمالها، وإلى عدم أخذ المؤمنين بأسباب التمكين مع أنها أسباب ربانية مشروعة.

وفي هذا السياق يقدم الأستاذ النورسي تحليلاً يستحق أن نقف عنده طويلا،

حول حقيقة الحضارة الأوربية وكيف أن أوربا اثنتان، لا أوربا واحدة، فهناك أوربا النافعة للبشرية التي كانت ذات صلة بالنصرانية الحقة، وهناك أوربا الثانية، التي خاصمت كل الأديان والغيبيات، وعبدت العقل والأسطورة معا، وتعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية والمادية، وفي مقابل هذه الحضارة المتعفنة يقدم الأستاذ النورسي الطريق الحضاري القرآني الذي ينسجم أصحابه مع الملائكة ويتعاونون في تنظيم حركة الكون بانتظام تام وتطابق رائع مع الأوامر التكوينية والتواصل الدائم بين السماء والأرض، وبين الماديات والمعنويات، والفاني والباقي.

ولكن: لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء وهم أهل حق ووفاق في حين يتفق أهل الدنيا والضلالة والنفاق؟

إن هذه معضلة من معضلات تاريخنا، يقدم النورسي سبعة أجوبة عليها، ويقدم من خلال هذه الأجوبة معالم لتَجاوُز هذه الحالة المَرَضية، ويدعو إلى ترك التنازع والاعتصام بحبل الله، وعدم التنافس في أمور الدنيا، ويقول: إذا كان المتصوفة عندهم ما يسمى بالفناء في الشيخ، فنحن ندعو إلى "الفناء في الإخوان"، أي أن نستعيد ذكريات استقبال الأنصار للمهاجرين الذين كانوا ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩).

ومن القضايا أيضاً إجابة الأستاذ عن قضية "موقع سد ذي القرنين" ورأيه في "شخصية ذي القرنين" ومن هو؟ ولماذا اختلط على الناس بالإسكندر الأكبر، ومن هم يأجوج ومأجوج؟ إلى غير هذا من القضايا التي تُعِين على تكوين معالم رؤيةِ بديع الزمان النورسي للتاريخ الإسلامي وتفسير حركة التاريخ بصفة عامة.

قضيتا الغدير والخلافة ومحاولة حقيقية للتقارب بين السنة والشيعة

في تاريخنا وفكرنا الإسلامي "مَحاطٌ" يجب أن نعالجها بطريقة موضوعية وواقعية، ولا نفصلها عن سياقها الفكري والتاريخي، ومن ثم نسلط عليها شحنة عاطفية وفكرية تجعلها ثابتة تهدم وتفرق، وتبعث من أعماق التاريخ حزازات

وأحقاداً ما أغنانا -في الواقع الأسيف الذي نكابده- عن اجترارها وبعثها بعثاً صِدامياً عدوانياً يهدم الماضي والحاضر معاً...!!

وموضوع "غدير خم" أو "الغدير" واحد من عشرات الموضوعات التي يجب أن توضع في أطر كلية، وتمنهج بطريقة جديدة؛ حتى لا تبقى صورة العداء الفكري موصولة منذ استشهاد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وحتى اليوم تقسم الأمة -إلى جناحين متصارعين.. ليس في ماضيها فقط- بل في حاضرها ومستقبلها!!

وباسم "الغدير" تقام دور نشر وتصدر كتب ودوريات، وتقام أحفال سنوية، وتتواصل البحوث متخذة الخط الحاد العنيف نفسه، دون أن يفكر الكاتبون والمحتفلون في العواقب التي يمكن أن تتحقق من وراء جهودهم، ودون أن يبصروا ما تعانيه الأمة من وراء هذه الضغوط والتكثيفات الفكرية التي تشعل الحروب الفكرية، وتمزق الصفوف، وتقود ضعاف الرؤية للاتجاه يميناً أو يساراً، مما يكون من شأنه -في نهاية الأمر- تعكير الأجواء، وبقاء البراكين قابلة للانفجار!!

ونحن -في هذا المقام- نقف عند هذا الأمر -أو هذه المعضلة التاريخية- وقفة علمية نقدم من خلالها رؤية فريق كبير معتدل من الممثلين -باعتدال شديد- لرؤية أهل السنة والجماعة، سعياً إلى إنهاء هذه المشكلة، وعبور هذا القاطع وأمثاله من القواطع التي تحجز الأمة عن التوحد، والتضامن، ولا سيما والأمر يتعلق بالماضي -أولا- وتتعدد فيه الرؤى -ثانياً- ولأن الجمع بين هذه الرؤى -ثالثاً- ليس صعباً.. وذلك -بالطبع- عندما تتسع الآفاق، وتنفسح الصدور والعقول، وتصفو النيات، وتتحد الغايات!!

إنني -ابتداءً- لا أشكك في صحة الواقعة.. واقعة غدير خم!!

وإنني ثانياً -لم أفهم منها قط- أنها تعني فرض استخلاف سياسي ودنيوي محدد، يُلزم سلفنا الصالح من صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين كانوا يطبقون الإسلام في الفروع والجزيئات "في نطاق القدرة والطبيعة البشرية".. يلزمهم باستخلاف الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بمعنى أن يكون خليفة منصوصاً عليه للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، فهؤلاء الصحابة، سواء من الأنصار الذين لا

مصلحة لهم في ولاية أبي بكر أو عليّ أو غيرهم من المهاجرين الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة.. هؤلاء وأولئك من صحابة رسول الله الذين أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى عليهم الرسول في أحاديثه الشريفة: ينبغي علينا أن نجلهم عن أن يتواطأوا بهذا الاجتماع الغريب -دون مصلحة لأكثرهم- ضد أمر ألزم به الرسول في قضية خطيرة كما يذهب إلى ذلك الفهم الشيعي لغدير خم!!

وما كان يُتصور -عقلاً ولا ديناً- مع وجود الأمر بهذا الوضوح وبهذه القوة -كما يرى إخواننا الشيعة- أن يذهب الأنصار إلى السقيفة ليطلبوا الأمر لأنفسهم، فلما غلبهم إخوانهم المهاجرون بأن الأمة لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، طلبوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير... فحتى إذا ما استثنينا جبهة أبي بكر و عمر ﷺ -فإن المنهج الفكري السياسي السائد، وأساليب الحوار التي كانت مطروحة في السقيفة- تؤكد لنا أنه لم يكن هناك فقه نصي وديني -في الذهنية المسلمة- يأمر المسلمين أمراً نصياً وشرعياً باختيار الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وإلا لما كانت هذه الحوارات وهذه الآراء!!

ومن الناحية العملية، فإنه ليس للأنصار مصلحة في ولاية أبي بكر أو علي أو غيرهما من المهاجرين.. فكلهم سواء عندهم.. فضلاً عن أن كثيراً من المهاجرين أنفسهم -كذلك- لا مصلحة مباشرة لهم في ولاية أبي بكر أو علي ﷺ، فلهذا مكانته الرفيعة، ولذلك مكانته الرفيعة أيضاً.

وإنما فَهِم الصحابة -رضوان الله عليهم جميعا- أن موالاة الإمام عليّ ﷺ إنما هي موالاة روحية ومرجعية فكرية، ومكانة اجتماعية، وعاطفة وجدانية تَحفظ لآل بيته "من الصالحين الملتزمين بالإسلام لا المتاجرين به" مكانة دينية وروحية متميزة، وهي مكانة لم تفرضها وصية الرسول في "غدير خم" فحسب، بل فرضتها الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي توصي بآل بيت النبي ﷺ، وعلى رأسهم الإمام عليّ بن أبي طالب "الذي رباه الرسول في بيته، والذي تنفس في أجواء النبوة صبياً وشاباً، والذي تزوج من ابنة الرسول التي عاشت بعده، وأخيراً الذي أكرمه الله بالحبيبين العظيمين: الحسن والحسين رضي الله عن الجميع...".

وهذا ما فهمه المسلمون ونفهمه نحن أيضاً من قوله ﷺ في حديثه الصحيح الذي نسلم به ويسلم به كل مسلم: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار.."(رواه أحمد).

لكننا -مع إيماننا بهذا- يجب أن نضع هذا الحديث في سياقه الصحيح، فلعل هذا السياق يكشف لنا البواعث التي من أجلها قال الرسول u هذا الحديث، وبالتالي نضع هذا الحديث في حجمه وإطاره، ولا نمتد به لدرجة أن نلغي قاعدة الشورى في الإسلام.. تلك القاعدة التي تُمثل -مع العدل- العمودين الأساسيين للنظام السياسي الإسلامي!!

يقول الإمام ابن كثير في كتابه "حجة الوداع" عن حديث "غدير خم":

لقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير والتاريخ، فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه، وساق الغث والسمين، والصحيح والسقيم على ما جرت به عادة كثير من المحدثين، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة، ونحن نورد عيون ما روى في ذلك أعلامنا أنه لا حظ للشيعة فيه، ولا متمسك لهم ولا دليل، لما سنبينه وننبه عليه، فنقول والله المستعان:

قال محمد بن إسحاق في سياق حجة الوداع: حدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة، قال: "لما أقبل عليّ من اليمن ليلتقي برسول الله ﷺ بمكة، تعجل إلى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من الصحابة، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي".

فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا إذا قدموا في الناس، قال: ويلك!! انزع قبل أن تنتهي به إلى الرسول ﷺ قال: فانتزع الحلل من الناس فردها في البز، قال: وأظهر الجيش شكواهم لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق، فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب -وكانت عند أبي سعيد الخدري- عن أبي سعيد، قال: "اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعته يقول: "أيها الناس لا تشكوا علياً، فو الله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يشتكى".

ورواه الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق به وقال: إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله.[1]

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي والحسن بن سفيان: حدثنا هدبة عن البراء، قال "كنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فلما أتينا على "غدير خم" كبح (كنس) لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، ونودي في الناس: الصلاة جامعة، ودعا رسول الله ﷺ عليا وأخذه بيده فأقامه عن يمينه، فقال: "ألستُ أولى بكل امرئ من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه". فلقيه عمر بن الخطاب: فقال: هنيئا لك: أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة!

ورواه بن جرير، عن أبي زرعة، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة عن علي بن يزيد، وأبي هارون العبدي -وكلاهما ضعيف- عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب، به.

وروي عن ابن جرير هذا الحديث عن موسى بن عثمان الحضرمي -وهو ضعيف جداً- عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء وزيد بن أقرم. والله أعلم.[2]

وهكذا نرى أن هذا الحديث الصحيح رد لاعتبار عليّ ﷺ في وجه من حاولوا شكايته أو النيل منه، وهو تأكيد لحق أصيل لكل أهل البيت الكرام وعلى رأسهم الإمام علي. وبهذا المعنى استَقبل عمر بن الخطاب الحديث وهنأ علياً، دون أن يَعلق -لا في ذهن عمر ولا علي- أي صلة لهذا الحديث بالشأن

(١) حجة الوداعن الإمام ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد ص١٨٦، دار القرآن الكريم، بيروت.
(٢) المصدر السابق ص١٨٦.

السياسي.. ولا بنظام الحكم في الإسلام.. ولا بإلغاء الشورى بعد رسول الله ﷺ. وكل المؤمنين فقهوا هذا الحديث على هذا النحو الديني والروحي..!!

إننا -نحن أهل السنة جميعاً- نؤمن بأن لأهل البيت ولاية وحقوقاً، ونعدهم إذا كانوا ممثلين صادقين للإسلام -أئمتنا الروحيين، لأنهم إذا توافر فيهم ما في أهل العلم والفضل- يزيدون عليهم بنسبهم لرسول الله ﷺ، وتنفسهم في مناخ النبوة الزكي، كما يزيدون بوصاية القرآن والسنة بهم.

وهذا الولاء لهم إنما هو ولاء يُقصد به الحب والإجلال، وأَخْذُ الدين عنهم، والاستعداد التام للذود عنهم وإكرامهم. وهذا الولاء يؤمن به كل مسلم صادق، وهو جزء من الوجدان الإسلامي العام. أما القول بأن حديث "غدير خم"- أو غيره من الأحاديث الصحيحة أو الضعيفة التي تمجد علياً أو تمجد آل البيت أو بعض الصحابة- من شأنها فرض الخلافة "بالنص" لعلي وأسرته و"إلغاء الشورى"- فهو قول مرفوض، فكل هذه الأحاديث خارجة عن النطاق السياسي تماما.. فالرسول ﷺ لم يوص لأحد بعده- لا لأبي بكر ولا لعلي ﷺ. وكل الأحاديث التي اعتمد عليها الشيعة في مذهبهم -ماعدا قلة من الأحاديث ومن بينها حديث غدير خم- هي أحاديث -كما يقول ابن حزم الأندلسي- موضوعة مكذوبة، ولكن ابن حزم نفسه يوافق على صحة حديث: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى"، ويرى أنه لا يوجِب لعلي فضلاً على من سواه، ولا استحقاق لإمامته بعد الرسول لسببين:

الأول: لأن هارون لم يل أمر بني إسرائيل بعد موسى. والسبب الثاني: أن الرسول ﷺ قد قال لعلي هذا القول حينما استخلفه علي المدينة في غزوة تبوك، كما استخلف رجالا كثيرين غيره قبل تبوك وبعدها على المدينة في أسفاره، ولذا فإن هذا الاستخلاف لا يوجب لعليّ فضلا على غيره، ولا مبرراً لولايته الأمرَ بعد رسول الله.

وتقول الدكتورة "نجاح محسن" نقلا عن ابن حزم وتحليلاً لآرائه: "من المحال أن يتفق جميع المسلمين على طيِ عَهْد عَهِده رسول الله ﷺ إليهم؛ فلا

توجد أية رواية عن أحد بهذا النص المزعوم إلا رواية واحدة ضعيفة، ولا يوجد سبب يجعل الناس يكتمون النص منذ مات الرسول إلى قتل عثمان.

وإذا كان الرسول قد نص على عليّ وكانت الخلافة من حقه فما الذي منعه من الكلام والمطالبة بحقه وإظهار النص الذي يدعيه الشيعة.

وإذا قالت الشيعة: إن الصحابة قد نسوا ذلك العهد، فإن هذا محال، لأنه في هذه الحالة يمكن أن يدعي أي إنسان أنه منصوص عليه وأن الناس كلهم نسوه.

وإذا كان جميع أصحاب رسول الله ﷺ قد اتفقوا على جحد ذلك النص وكتمانه، واتفقت طبائعهم على نسيانه، فكيف وصل هذا النص إلى الروافض؟ ومن بلّغه إليهم"!![1]

وهذه الآراء -سواء لابن كثير أو ابن حزم أو الدكتورة نجاح محسن- بعض ما يمثل تراثنا السني في هذه القضية الخطيرة، وهناك نماذج كثيرة لا يمكن استقصاؤها.

ونحن نكتفي هنا بتقديم نموذج آخر -إلى جانب هذه النماذج- نراه أكثر اعتدالاً، بل تودداً إلى إخواننا الشيعة، وحباً عارما لآل البيت، فضلاً عن أنه أكثر بحثا عن حل يرضي جميع الأطراف لهذه المشكلة التاريخية التي لا يجوز أن تبقى قاطعا فاصلاً بين الشيعة والسنة إلى يوم القيامة.

ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن معالجة العالم التركي بديع الزمان سعيد النورسي يعد من أفضل ما قدم في العصر الحديث.

إنه لم ينطلق -ابتداءً- من موقف المدافع عن موقف أهل السنة والجماعة المنتقص لرأي الشيعة، بل انطلق من موقف محايد ودود يحاول أن يفض اشتباكاً، ولا يسعى لتقديم آراء من شأنها أن تزيد الأمر اشتعالاً أو تبقيه على وضعه القديم.

ولهذا نرى النورسي يبرز -بأسلوب قوي- عاطفته الجياشة نحو أهل البيت،

---

(١) الاتجاه السياسي عند ابن حزم الأندلسي، د. نجاح محسن، ص٦٢-٦٣، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ (بتصرف)، مصر.

ويبرز إمامتهم الدينية والعلمية والروحية في حضارة المسلمين، ودورهم الدعوي الأساسي بالنسبة لنشر الإسلام، وإبراز حقائقه والذود عنه.

ويحلل النورسي رسالة أهل البيت -من خلال النصوص التي تَحدثت عنهم في الكتاب والسنة-، فيبين أن الاهتمام الشخصي -القولي والفعلي- من الرسول ﷺ بآل البيت -يرجع إلى أنهم امتداد شجرة النور، وأنهم القادرون على حمل الأمانة بعد خاتم الأنبياء- أكثر من غيرهم؛ لتنفسهم في بيت النبوة ومعاشرتهم لإمام الدعوة ﷺ، وفقههم السديد بالإسلام عاطفة وعقلا.

يقول النورسي: "إن إظهار الرسول ﷺ شفقة فائقة وأهمية بالغة للحسن والحسين رضي الله عنهما في صباهما، ليست هي شفقة فطرية ومحبة نابعة من الإحساس بصلة القربى وحدها، بل نابعة أيضاً من أنهما بدايةُ سلسلة نورانية تتولى مهمة من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلا منهما منشئ جماعة عظيمة من وارثي النبوة، وممثل عنها وقدوة لها.

نعم، إنّ حمل الرسول ﷺ الحسن ﷺ في حضنه وتقبيله رأسه بكمال الشفقة والرحمة هو لأجل الكثيرين من ورثة النبوة الشبيهين بالمهدي الحاملين للشريعة الغراء".[1]

"إن الرسول ﷺ قد شاهد بنظر النبوة الأنيس بالغيب: أن آل بيته سيكونون بمثابة شجرة نورانية عظيمة تمتد أغصانها وفروعها في العالم الإسلامي".[2]

"كذلك رأى ﷺ أن أقطاب آل بيته يكونون كأنبياء بني إسرائيل في الأمة المحمدية يؤدون وظيفة خدمة الإسلام العظيمة في شتى طرقها ومسالكها، ولأجل هذا أمر ﷺ أن يقول: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾(الشورى:٢٣) وطلب مودة أمته لآل بيته. والذي يؤيد هذه الحقيقة هو ما جاء في روايات أخرى أنه ﷺ قال: "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي" (رواه أحمد). ذلك لأن آل البيت

(١) اللمعات، بديع الزمان النورسي ص٣٠.

(٢) المصدر السابق ص٣١٠.

هم منبع السنة الشريفة والمحافظون عليها والمكلفون أولا بالالتزام بها".[1]

فمكانة أهل البيت -إذن- مستمدة من وظيفتهم العظمى، وهي تمثيلهم للإسلام في سلوكهم وفكرهم، وبذلهم الجهد الدعوى والتربوي والأخلاقي في مقاومة المنحرفين بالإسلام عن إطاره الشرعي، العاملين على إسقاط نزعات سياسية أو مصلحيه أو فكرية على حقائقه الناصعة التي يجب أن تبقى صافية نقية يلجأ الناس إليها كلما استبد بهم المحرفون والظالمون والخارجون عن الهدي القرآني والنبوي الكريم.

هذه هي وظيفة آل البيت، وهذا هو دورهم الحقيقي في التاريخ، ومن هذه الوظيفة وهذا الدور يستمدون مكانتهم، وتتحدد رسالتهم، ومن ثم يحتلون مواقع الحب والتقدير والقيادة بالنسبة لجميع المسلمين... لا فرق في ذلك بين من يسمى "سنة" ولا من يسمى "شيعة"!!

ويؤصل النورسي -بمنهجية عميقة ورؤية تاريخية منصفة بنّاءة- آراءه في حل ألغاز تلك "الفتنة الكبرى" وتوجيهَ وقائعها التوجيهَ الإسلامي السديد، فيقرر أن التحليل الموضوعي لمسيرة الأحداث وسلوكيات الصحابة- وهم من هم في دينهم وإخلاصهم -وسلوكيات أبي بكر وعلي وبقية الراشدين وهم قمة الصحابة- هذا التحليل الموضوعي البعيد عن العصبية والتشنج يأخذ بأيدينا لتحقيق الوئام بين السنة والشيعة.

فالقضية تتلخص في رأيين يبدوان متناقضين:

فإن أهل السنة والجماعة يقولون: إن عليا ﷺ هو رابع الخلفاء الراشدين، وإن أبا بكر الصديق ﷺ هو أفضل منه وأحق بالخلافة، فتسلم الخلافة له أولا..

والشيعة يقولون: "إن حق الخلافة كان لعلي ﷺ إلا أنه ظُلم، وعليّ ﷺ أفضل من الكل".[2]

لكننا -لو نظرنا لمسيرة الوقائع بالمنهجية العميقة الواعية- لرأينا الوقائع

(١) المصدر السابق ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٢.

ترفض قول الشيعة جملة وتفصيلا. وحتى الإمام الأكرم علي بن أبي طالب يرفض رأي الشيعة بأعماله وسلوكياته وأقواله...

يقول النورسي: "إن إقرار سيدنا عليّ نفسِه مرارا وتكرارا، واتّباعَه الخلفاء الثلاث، وتَوَليه وظيفةَ "شيخ القضاة"، وكونه من أهل الحل والعقد طوال عشرين سنة وأكثر... كل ذلك يجرح دعوى الشيعة.[1]

ويقول النورسي أيضاً: "إن أهل الحق، أهل السنة والجماعة الذين يحبون سيدنا عليا ﷺ ويوقرونه، كيف لا يحبون من كان سيدنا علي ﷺ نفسه يحبهما ويجلهما؟.[2]

إن شيعة الخلافة لا حق لهم غير الخجل أمام أهل السنة والجماعة؛ لأن هؤلاء ينقصون من شأن سيدنا علي ﷺ في دعواهم الحب المفرط له، بل يقضي مذهبهم وَصْمَه بسوء الخلق -حاشاه-، حيث يقولون: "إن سيدنا عليا ﷺ قد ماشى سيدنا الصديق والفاروق -رضي الله عنهما- مع أنهما غير محقَّين، واتقى منهما تقاة، وباصطلاح الشيعة: إنه عمل بالتقية. بمعنى أنه كان يخافهما، وكان يرائيهما في أعماله (!!)

إنَّ وصف مثل هذا البطل الإسلامي العظيم الذي نال اسم: "أسد الله" وأصبح قائدا لدى الصديقَين ووزيرا لهما: أقول: إن وصفه بأنه كان يرائى ويخاف ويتصنع بالحب لمن لا يحبهم حقا، واتباعَه لغير المحقين أكثرَ من عشرين عاما، ومسايرتَهما تحت سطوة الخوف، ليس من المحبة في شيء. وسيدنا علي ﷺ يتبرأ من مثل هذه المحبة.

وهكذا فإن مذهب أهل الحق لا ينقص من شأن سيدنا علي ﷺ بأية جهة كانت، ولا يتهمه في أخلاقه قطعا ولا يسند إلى مثل هذا البطل المقدام الخوف؛ بل إن أهل السنة يقولون: "لو لم يكن سيدنا علي ﷺ يرى الحق في الخلفاء الراشدين لما كان يعطيهم الولاء لدقيقة واحدة، وما كان ينقاد لحكمهم أصلا".

---

(١) المصدر السابق ص٣٣.

(٢) المصدر السابق ص٣٦.

بمعني أنه ﷺ قد عرف أنهم على حق وأقر بفضلهم، فبذل شجاعته الفائقة في سبيل محبة الحق.[1]

ويَحُل "النورسي" مشكلة "الأفضيلة" بين أبي بكر أو الخلفاء الثلاثة، وبين علي، بطريقة علمية أراه غير مسبوق إليها -بهذا الجلاء والإنصاف والفقه السديد لوظيفة آل البيت- يقول النورسي:

"إنه ينبغي النظر إلى سيدنا علي ﷺ من زاويتين أو من جهتين:

الجهة الأولى: النظر إليه من زاوية فضائله الشخصية ومقامه الشخصي الرفيع.

الجهة الثانية: هي من زاوية تمثليه الشخصي المعنوي لآل البيت. والشخصُ المعنوي لآل البيت يعكس نوعا من ماهية الرسول الكريم ﷺ.

فباعتبار الجهة الأولي: إن جميع أهل الحقيقة وفي مقدمتهم سيدنا علي يقدمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد رأوا مقامهما أكثر رفعة في خدمة الإسلام والقرب الإلهي... ومن حيث الجهة الثانية (أي كون سيدنا علي ﷺ ممثّلا عن الشخص المعنوي لآل البيت): فالشخص المعنوي لآل البيت من حيث كونه ممثّلا لحقيقة محمدية، لا يرقى إليه شيء بالموازنة. وكثرةُ الأحاديث النبوية الواردة في الثناء على سيدنا علي ﷺ وبيان فضائله هي لأجل هذه الجهة الثانية.[2]

وهذه النتيجة التي ينتهي إليها النورسي تكاد تكون -تماما- هي الحقيقة المسيطرة على أكثر أهل السنة، فلا أحد من أهل السنة -إلا الشواذ الناصبة- إلا ولآل البيت في قلبه مكانة سامية وحب عظيم، لدرجة أن كثيرا منهم يحاولون الانتساب إليهم، لكنها علاقة ولاية دينية (أي حب ودين وولاء للرسول وآل بيت النبوة) وليست ولاية حكم وسياسة تُفرض على الناس فرضا، سواء عن جدارة أم غير جدارة.

---

(١) المصدر السابق ص٣٧.

(٢) المصدر السابق ص٣٤.

ويسمي النورسي أهل السنة "شيعة الولاية"...

يقول: "إن المحبة المفرطة التي يوليها "شيعة الولاية" لسيدنا علي ﷺ، وتفضيلهم له من جهة الطريقة لا تجعلهم مسؤولين بمثل مسؤولية "شيعة الخلافة"، لأن أهل الولاية ينظرون نظرة المحبة إلى مرشديهم حسب مسلكهم. ومن شأن المحب الغلو والإفراط والرغبة في أن يرى محبوبه أعلى من مقامه. فهم يرون الأمر هكذا فعلا".

"فأهل الأحوال القلبية يمكن أن يُعذروا أثناء غليان المحبة لديهم وغلبتها عليهم ولكن بشرط ألا يتعدى تفضيلهم الناشئ من المحبة إلى ذم الخلفاء الراشدين وعداوتهم، وألا يَخرج عن نطاق الأصول الإسلامية.[1]

ويرى النورسي أن الأحاديث الواردة في مدح شيعة علي ومحبي آل البيت إنما تعود إلى هؤلاء وحدهم.

يقول: "أما الثناء النبوي لشيعة علي ﷺ كما ورد في أحاديث نبوية، فإنما يعود إلى أهل السنة والجماعة، لأنهم هم المتبعون لسيدنا علي ﷺ على وفق الاستقامة، لذا فهم شيعة سيدنا علي ﷺ (أي هم الشيعة الحقيقيون المتبعون لسنة الرسول القويمة)".

"وقد جاء في حديث صحيح صراحة، أن خطورة الغلو في محبة سيدنا علي ﷺ كخطورة الغلو في محبة سيدنا عيسى عليه السلام على النصارى".[2]

ويستطرد النورسي، فيفصّل القضية على نحو أعمق، مقارِنا بين مزايا أبي بكر وعمر وعثمان التي جعلتْهم الأجدر بالاستخلاف في شؤون السياسة والحُكم قبل علي، وبين مزايا "علي" التي تجعله وآلَ بيته -الملتزمين بالإسلام- الأجدر دائما في شؤون الدين، فيقول: "إذا ما وضع في كفةِ ميزانٍ الفضائلُ الشخصية لسيدنا أبي بكر ﷺ، أو فضائلُ سيدنا عمر الفاروق ﷺ وما قام به كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتهما، ووضع في الكفة

(١) المصدر السابق ص٣٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٥.

الأخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي ﷺ، ومجاهداتُ الخلافة في زمانه، وما اضطر إليه من معارك داخلية دامية أليمة، وما تعرض له بهذا من سوء الظن.. فلا ريب أن كفة سيدنا أبي بكر الصديق أو كفة سيدنا عمر الفاروق ﷺ أو كفة سيدنا ذي النورين ﷺ، هي التي تكون راجحة... وهذا الرجحان هو الذي شاهده أهل السنة والجماعة وبنوا تفضيلهم عليه.[1]

لكن على الجانب الآخر يقف الإمام علي ﷺ قائدا لا يُبارى في مجال خاص لا يشاركه فيه أحد.. وهذا المجال يحدده النورسي في عبارته التي يقول فيها: "إن سيدنا عليا ﷺ لا يباريه أحد من جانب كونه الممثلَ في ذاته للشخص المعنوي لآل البيت، والذي تجلى في هذه الشخصية المعنوية من حيث الوراثة النبوية المطلقة. وذلك لأن السر العظيم للرسول الأعظم ﷺ في هذا الجانب".[2]

فهكذا تنقسم الأدوار تقسيما يجب أن تتكامل لا أن تتصادم. فالشأن السياسي هو شأن الأمة وفق نظام الشورى ومؤهلات الحكم والمصلحة العامة، وفي إطار أن "الأئمة من قريش" إذا كانوا الأصلح... فهم في هذه الحالة -فقط- الأحق والأولى...!!

أما الشأن الديني والدعوى فيجب أن ينهض له آل البيت، وأن يجعلوه محور حياتهم، وأن يكونوا الأئمة فيه، وأن يأخذوا بيد أهل السياسة وجميع أفراد الأمة إلى الحق كما أراده الله، وكما طبقه رسول الله ﷺ الذي كان قرآنا يمشي على الأرض.

أما الخلط بين الأدوار، فمن شأنه التصادم والتنازع. وهو ما حدث فعلا، وكان سببا في كوارث وفتن كثيرة في تاريخنا.

وقد آن طي هذه الصفحات وجعلها "دراسة تاريخية" مثل دراستنا لآراء المعتزلة والكلاميين الآخرين... نأخذ منها ما ينفعنا لا ما يضرنا، وما يوحدنا لا ما يفرقنا.

---

(١) المصدر السابق ص٣٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٤.

ومن ثم نكل بقية آرائهم إلى ظروف عصرهم.. التي أحاطت بهم.. وإلى رب العالمين.. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:١٤١).

من أجل التقدم خطوة نحو الوحدة، ومن أجل الوقوف معاً ضد القوى التي تتربص بالجميع.. سنه وشيعة.. ومن أجل أن نقدم -معا- حضارة إسلامية.. تجمعها ثوابت متفق عليها من الجميع لا تتوافر لأية أمة أو حضارة أخرى..!!

سعيد النورسي.. والموقف من الحكام

ألمحنا إلى أن صفحات تاريخنا الإسلامي تحفل بمئات النماذج التي تؤكد الارتباط بين العلماء والأمراء، وتؤكد أن نتيجة هذا الارتباط كانت دائماً خيرا وبركة على الأمة؛ تحقيقا لتقدمها، ونصرا لها على أعدائها، ولا سيما إذا كان الأمراء أو الحكام مخلصين في هذا الارتباط ويشعرون بأهمية العلماء، ويحترمون مشورتهم، ويخضعون لحكم شريعة الإسلام عندما يقضي أو يفتي العالم -أو الفقيه أو القاضي- بحكم الشريعة الغراء، شأنه في ذلك شأن بقية المسلمين.. فالحكام والمحكومون سواء أمام شريعة الله..

وقد بين لنا التاريخ -بجلاء- أن عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي تحقق لهم النصر بإذن الله، ثم بمؤازرة العلماء، كما بين التاريخ أن صلاح الدين -بخاصة- كان يسعى إلى العلماء المخلصين ويستشيرهم ويستعين بهم، وأنهم قاموا بدور أساسي في انتصاراته على الصليبيين، وتوحيد الصف الإسلامي إلى جانبه!!

وكان على رأس هؤلاء المؤرخُ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد (٥٣٩- ٦٣٢هـ/ ١١٤٥-١٢١٤م) والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (ت ٥٨٥هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩-٥٩٧هـ/١١٢٥-١٢٠٠م). الذي كان قلمه كما يصف المؤرخون أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين

عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى أنفسهم، وآية ذلك قوله: "وكان يأمرني بإجابة كتب الملوك في حالتي سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي" وشهد مؤرخو الغرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبل الخلق.

ويعد أبو علي محيي الدين عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ/١١٣٥-١١٩٩م)، المعروف بالقاضي الفاضل من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين.

وفي العصر المملوكي برز من علماء المسلمين كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام (سنة ٦٦٠هـ)، وتقي الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز قاضي قضاة الشافعية (سنة ٦٥٤هـ)، وهو صاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)، وهو أشهر من أن نقف عنده!!.

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وبيقين فإن هذا الموقف الأساسي والحضاري الذي يجب أن يكون قائماً، وأن يكون التعاون على أفضل ما يكون بين العلماء والحكام.

بديع الزمان النورسي نموذج للتعامل مع الحكام المنحرفين

ويمثل بديع الزمان سعيد النورسي نموذجا آخر -لمواقف أخرى- كثيرا ما تقع في عصور الضعف والاستخذاء والهوان.. وذلك عندما يكون الحاكم طاغية كارهاً للإسلام، موجها ضده من القوى الشيطانية.

فماذا يفعل الداعية أو العالم المسلم في معالجة وصفية كهذه؟..

هل يلجأ إلى الاعتزال وترك الميدان للمجرمين من أعداء الإسلام؛ مجففي منابع الإيمان؟ أم يلجأ إلى موالاة حركات العنف والثورة؟ أم يصبح تابعا دليلا

للنظام؛ راضيا بأي موقع يظن أنه يمكّنه أن يؤثّر من خلاله؟ أم يصطنع لنفسه منهجية دعوية؛ بعيدة عن كل هذا، معتمدا على الله، واثقا في أن "الله أكبر" من كل الضغوط العابرة، وواثقا من أن الحاكم الظالم إنما أرسله الله ابتلاء وتمحيصا، وبالتالي فالعلاج يكون بتغيير النفوس والأوضاع، وليس بالثورة على الطاغية الظالم؟

لقد كان النورسي واعيا بالمعادلة على وجهها الصحيح؛ ولهذا فإنه لم يكن أبدا داعية فتنة أو أي عمل عنيف..

ولقد تعرض النورسي لموقفين كبيرين في حياته، لهما صلة بأعمال العنف، وتعرض للمحاكمة في كلا الموقفين، ونال البراءة القانونية فيهما، على الرغم من أنه لم يسلم من الملاحقة وتجاوز القانون الذي درج عليه رجال الشرطة السرية؛ الذين لا يعترفون لا بالشريعة ولا بالقانون!!.

ففي ٥ نيسان ١٩٠٩م قام "سهيل باشا" و"محمد صادق" و"الفريق رضا باشا" و "الدرويش وحدتي" مع آخرين بتشكيل جمعية "الاتحاد المحمدي" في إسطنبول وأُعلن عن تشكيلها بعد اجتماع ديني حاشد لم تر إسطنبول مثيلاً له في جامع "أيا صوفيا".

كانت هذه الجمعية رد فعل للمخاوف التي بدأت تسري بين صفوف الشعب من مظاهر العداء للإسلام التي بدأت تسيطر على مقاليد الأمور، وكذلك في بعض الصحف التي بدأت بنشر المقالات الإلحادية، وقد حضر: "بديع الزمان" هذا الاجتماع يحف به جمع غفير من طلاب المدارس الدينية، وألقى في هذا الاجتماع خطبة استمرت قرابة ساعتين حث فيها الجميع على التمسك بآداب الإسلام، كما تناول فيها جميع القضايا المهمة آنذاك والتي كانت تشغل الأذهان.[1]

وفي ٣١مارس ١٩٠٩م قامت حركة عصيان وتمرد اتهم بإثارتها السلطان عبد الحميد وهو منها بريء، واتخذت ذريعة لعزله عن العرش.

وقد بدأت الحركة قرب منتصف ليلة ٣١مارت (١٣نيسان) في ثكنة "طاش

(١) رجل القدر في حياة أمة، أورخان محمد علي ص٥٥، دار سوزلر للنشر، ط٣، ٢٠٠٦، القاهرة.

قشلة" عندما قام جنود "آوجي طابوري" بحبس ضباطهم في الغرف ثم تدفقوا إلى ساحة "سلطان أحمد" وبدأوا عند حلول صباح اليوم التالي بإطلاق الرصاص في الهواء مما ولد فزعاً ورعباً عند الأهالي، ثم أخذوا يهتفون:

نريد الشريعة! نريد الشريعة![1]

ولم تلبث "سلانيك" وهي مركز يهود الدونمة والاتحاد والترقي أن انهالت بالبرقيات على قصر "يلدز" تتهم السلطان بأنه هو المدبر لهذا التمرد لكي يقضي على المشروطية الثانية (الدستور) وعلى جمعية الاتحاد والترقي حامية هذه المشروطية. وأخيراً تقرر إرسال قوة من سلانيك للقضاء على هذا التمرد.[2]

وقد خرجت هذه القوة من سلانيك يوم ١٥ نيسان، ووصلت إلى ضواحي إسطنبول يوم ٢٢ نيسان وتمكنت من السيطرة على الوضع.

وكان "سعيد النورسي" من بين الذين قُدموا للمحكمة العسكرية التي رأسها الحاكم العسكري "خورشيد باشا" المعروف بقسوته وبطشه، وكانت هذه المحكمة فرصة طيبة للاتحاديين لكي يتخلصوا من خصومهم بحجة اشتراكهم في هذه الحادثة أو تعاونهم مع القائمين بها.

ومع أن "بديع الزمان" لم تكن له أدنى علاقة بهذه الحادثة، بل على العكس فقد نصح الجنود باحترام أوامر ضباطهم والعودة إلى الهدوء والطاعة، إلاَّ أن الاتحاديين لم يكونوا قد نسوا المقالات العنيفة التي كتبها ضد جمعية الاتحاد والترقي في جريدة "وولقان"، كما قامت جمعية الاتحاد والترقي بحلّ "جمعية الاتحاد المحمدي".

وعندما اقتيد "بديع الزمان" إلى المحكمة، كان هناك ما يزيد عن عشر جثث من المشنوقين تتدلى من أعواد المشانق المنصوبة في باحة المحكمة العسكرية.

وقد دخل "بديع الزمان" قاعة المحكمة بخطى ثابتة ليواجه المحكمة العسكرية برئاسة "خورشيد باشا" الذي ابتدره قائلاً بلهجة امتزج فيها التهديد بالسخرية:

---

(١) المصدر السابق ص٥٦.

(٢) المصدر السابق ص٥٧-٥٨.

وأنت أيضاً كنت تدعو إلى "الشريعة" وتطالب بها؟! انظر! إن من يطالب بها يشنق هكذا -وأشار بيده إلى جثث المشنوقين الظاهرة من خلال نافذة المحكمة- فقام "بديع الزمان" وألقى أمام المحكمة دفاعاً جريئاً رائعاً نقدم هنا مقتطفات منه، قال فيه:

إنني إذ أقف في برزخ بين الدنيا والآخرة فإنني أزن كل شيء بميزان الشريعة، والإسلامُ وحده هو ملتي، لذا فإني أقوّمُ كلّ شيء من وجهة النظر الإسلامية.

إنني إذ أقف في عالم البرزخ الذي تدعونه: "السجن" منتظراً قطار الآخرة في محطة "أعواد المشانق" ومنتقداً الأحوال الغادرة للمجتمع الإنساني، فإنني هنا لا أخاطبكم وحدكم بل لعلي أخاطب بني الإنسان بأجمعهم.[1]

وقال أيضاً: إن هذه الحكومة -في عهد الاستبداد- كانت تعادي العقل، أما الآن فإنها تعادي الحياة بأكملها، فإذا كان هذا هو شكل الحكومة ومنطقها. فليعش الجنون.. وليعش الموت.. ولتعش جهنم للظالمين وللطاغين.

تقولون: لقد دعوتَ أنت أيضاً إلى الشريعة.. وأنا أقول: بأنه لو كان لي ألف روح لكنت مستعداً للفداء به في سبيل حقيقة شرعية واحدة.. ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة، وهي العدالة المحضة، وهي الفضيلة.. الشريعة الحقة وليست الشريعة التي طالب بها المتمردون.

تقول: هل انضممت إلى "الاتحاد المحمدي"، وأقول: نعم.. وبكل فخر..

فأنا أصغر فرد من أفراد هذا الاتحاد، ولكن بالصيغة التي أعرّفها، ومن الذي يرضى أن يبقى خارج هذا الاتحاد سوى الملحدين.. أروني مَن؟!".

وبعد أن شرح للمحكمة كيف أنه عندما سمع بتشكيل جمعية بهذا الاسم خشي جداً أن يقترف بعضُ الأشخاص -وتحت هذا الاسم المبارك- بعضَ الأخطاء، ثم إن هذا الاسم حق عام للمسلمين وليس من حق أحد أن يضيق حدوده.[2]

---

(١) المصدر السابق ص٥٧-٥٨.

(٢) المصدر السابق ص٥٨-٥٩.

وتكلم بديع الزمان.. وكأنه موج هادر، أو سيل جارف.. وانقلب الوضع فأصبح وهو الذي يحاكِم، وهو الذي يَتهِم، وهو الذي ينتقد، وأصبحت هيئة المحكمة وكأنها هي المتهَمة... فلم يعتذر، ولم يستعطف، ولم يسترحم.. لم يتلجلج، ولم يتلعثم، ولم يتردد.. وفغر أعضاءُ المحكمة أفواههم دهشة.. كانوا تجاه نموذج فريد لم يجربوه بعد.. لم يكن كالمتهَمين السابقين الذين وقفوا أمامهم والذعر يلفهم، لا يستطيعون رفع أنظارهم الوجلةِ إلى وجوههم..كان شيئاً آخر، نموذجاً فريداً ومهيباً... وأحسوا أنهم يدينون له بالاعتذار؛ ففي جلسة واحدة فقط صدر قرار الحكم ببراءة "بديع الزمان" من تلك المحكمة الرهيبة التي أَرسلت العديد إلى حبال المشنقة.[1]

أما التجربة الثانية فقد وقعت ضد كمال أتاتورك وجمعية الاتحاد والترقي، وكانت من داخل الجيش العثماني أيضاً.. وكان سعيد النورسي قد استشير فيها من قبل قائدها الشيخ "سعيد بيران"، ورَفَضَها، وتنبأ لها بالفشل، وبإراقة كثير من الدماء هدرا، ونصح بالكف عنها؛ إلا أنها وقعت رغما عنه، ومع ذلك حوكم كذلك، وكأنه أحد المشاركين فيها!!

لقد أَرسل سعيد بيران إلي الشيخ النورسي رسالة جاء فيها ما يلي:

يا سيدي! إن نفوذكم كبير، فإذا تفضلتم واشتركتم في حركتنا هذه فإننا سنَغلب. أي كان يدعوه صراحة إلى الاشتراك في تلك الحركة المسلحة.

فأجابه "النورسي" برسالة جاء فيها: "...نحن مسلمون والأتراك إخواننا، فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه، فهذا لا يجوز شرعاً، إن السيف لا يُشهر إلاّ بوجه الأعداء الخارجين، ولا يستعمل السيف في الداخل. إن السبيل الوحيد أمامنا للخلاص في هذا الزمان هو القيام بإرشاد الناس إلى حقائق القرآن وإلى حقائق الإيمان، والقيامُ بمكافحة الجهل الذي هو أكبر أعدائنا، لذا أرى أن تَصرِفوا النظر عن محاولتكم هذه لأنها محكومة بالإخفاق، إذ سيهلك الآلاف من الرجال والنساء بسبب حفنة من القتلة والمجرمين".

---

(١) المصدر السابق ص٦١.

ولكن نصائح "النورسي" لم تجد آذاناً صاغية من الشيخ "سعيد بيران" إذ بدأ بثورته المعروفة التي شاركت فيها كثير من القبائل الكردية.[1]

"وكما توقع النورسي فقد أخفقت حركة الشيخ سعيد، لأنها لم تنطلق من الوعي الإسلامي الشامل والإعداد الكامل، وكانت نتائجها وخيمة، فقد اشتدت الحملة على الإسلام وأهله أكثر من ذي قبل، وانتهك اللادينيون فيها كرامة الشعب المسلم تدميراً وقتلاً وإفساداً وإبعادا له عن كل ما يمت إلى الإسلام بِصِلَةٍ. بينما استمر النورسي في تطبيق نظريته التغيرية عن طريق نشر حقائق الإسلام بالأدلة والبرهان، وتكوين الجيل المؤمن الصالح، وبث الوعي الإسلامي بخطورة الحملة على الإسلام والمسلمين، وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية، ونقل التربية الإسلامية إلى داخل البيوت.[2]

ومما يتصل بموضوع حديثنا نذكر أنه أثناء إقامة النورسي في "وان" قرأ في الصحف المحلية خبرا مدهشا هز كيانه كله هزا عنيفا، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني "غلادستون" في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: "مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم؛ لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به".

وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن ورَبْطِ المسلمين بكتاب الله، حيث قال: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وفي شتاء سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار سعيد النورسي بلاد الشام، حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعا غفيرا من المصلين، وقد طُبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان: "الخطبة الشامية" التي شخّص فيها أمراض الأمة الإسلامية

---

(١) المصدر السابق ص١٢٥-١٢٦.

(٢) المصدر السابق.

وعلاجاتها، ورأى أنها تنحصر في الأمراض الستة التالية:

١- اليأس أو القنوط الذي ما زال يحد أسباب الحياة في نفوسنا.

٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٣- حب العداوة والبغضاء وإيثار الخلاف.

٤- تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥- ذيوع الاستبداد، مثلَ ذيوع الأمراض المعدية المختلفة، فالاستبداد ممتد في كل حياتنا.

٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفاف إلى النفع العام.

وعندما دعي ليقابل أعضاء الحكومة والبرلمان في أنقرة لبى الدعوة وذهب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢م، قبيل عيد الأضحى، حيث استُقبل في المحطة استقبالا حافلا، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيراً، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات كبارهم وسلوكهم المعادي للإسلام أحزنته كثيراً، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانا في ١٩٢٣/١/١٩م يتضمن عشرة مواد موجها إلى النواب يعظم ويذكرهم بالإسلام، مستهلا بـ"يا أيها المبعوثون:... إنكم لمبعوثون ليوم عظيم".

وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزع بين النواب، وتولى إلقاءه "كاظم كرة بكر-القائد الأول لحركة الاستقلال" أن ما يقارب ستين نائباً من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

ولم ترض القيادة اللادينية عن هذا البيان؛ فاستدعت بديع الزمان وحدثت بينه وبينهم مشادة عنيفة، وكان مما قاله لهم: "إن عظم حقيقة بعد الإيمان بالله هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود".

وعندما ظهرت للعيان المؤامرة على الإسلام -ديناً وحضارة وخلافة- لم يبدد سعيد النورسي وقته في البكاء ولعنِ الظلام، بل برمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مسلحا بالمكر والتآمر والانحلال

الأخلاقي، وتوجيه الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠ حين وافته المنية، عاش سعيد النورسي بجاهد بقلمه وجهودة التربوية والدعوية، وأمامه هدف التربية القرآنية والنبوية، واقتلاع بذور الإلحاد، وكانت موسوعته "رسائل النور" خلاصة مشروعه العملاق لبعث الأمة الإسلامية بعثا إسلاميا وعصريا.

وكما رأينا، فإنه في سبيل إنقاذ الإيمان اشتغل سعيد النورسي بالسياسة وتعاون مع الذين يمكن التعاون معهم من السياسين ورجال الخلافة العثمانية، وقدم للسلطان اقتراحات بشأن جامعة إسلامية عالمية في آسيا تضاهي الأزهر في إفريقيا.

لكن النورسي عندما وجد أن الإصلاح عن طريق سياسة عاجزة وساسة لا يرون قيام النهضة على أساس الإسلام والهوية الحضارية القرآنية المستقلة.. غيرُ متاح؛ أقلع عن الاشتغال بالسياسية وابتعد عن كل صور الصِدام بالساسة؛ ومن ثم تفرغ لبناء الأمة من موضع الفقه العصري للقرآن. فقها ينتهي ببناء الفرد العصري المؤمن، ومن ثم بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية القادرة على دحر الإلحاد -بلغة العقل والعلم والدين معا- وبناء إنسانية مؤمنة معاصرة.

وقد قدم لنا النورسي -بمواقفه تلك- نموذجا يحتذي في التعامل -والتفاعل حسب الظروف- مع أولي الأمر في ظل الظروف الصعبة- ظروف الخيانة الدينية والحضارية.

ضوابط السلوك الإسلامي الصوفي في فكر النورسيّ

عبر قرون التخلف أصاب التصوفَ ما أصاب غيره من التيارات والاتجاهات التي حاولت التعبير عن الإسلام فكراً، وقولاً، وسلوكاً، فابتعدت -أو ابتعد بها أصحابها- عن التعامل المباشر مع القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وسيرة السلف الصالح.

وقد ظل بعضها يبتعد لدرجة تكثيفه وتركيزه وذوبانه في اتجاهه الخاص؛ لدرجةٍ كادت تقطع العلاقة بينه وبين الجوانب الأخرى في الإسلام، فلم يصبح الأمر انفصالاً عن المصادر فقط، وخضوعاً لاجتهادات أصحاب الاتجاه؛ بل أصبح انقطاعاً عن مساحة كبيرة من الإسلام، وصار الإسلام مختزلاً إما في إصلاح القلوب وإهمالِ إصلاح العقول والأجساد وعمارة الكون، وإما في إصلاح العقيدة، ومعاداةِ إصلاح القلوب بدعوى أنهم أدخلوا فيها البدع والخرافات؛ وإما في إصلاح العقول بطريقة جافة تكاد تنظر إلى الدين وكأنه علم رياضيات أو كيمياء، وليس منهجاً لبناء إنسانٍ يمتزج فيه القلب والروح بالعقل والجسد وفاقاً لتنظيمٍ دقيقٍ ونِسبٍ متوازنة.

وإذا ما اقتربنا من موضوع حديثنا الذي هو "إحياء القلوب" أو "إحياء الجانب العاطفي والوجداني في الإنسان المسلم"، نجد عجباً، وذلك أنه في فترة الألق والتقدم كان هذا الجانب وقوداً يدفع أصحابه إلى نشر الإسلام، وبناءِ الدول التي يكون همها الأكبر أن تذب عن الإسلام وتدعو إليه عبر مساحة كبيرة من المعمورة.

ولا أستطيع هنا أن أنسى تلك الصورة المضيئة التي تحملها ذاكرتي ومشاعري لدولة المرابطين التي حكمت معظم المغرب مع الأندلس لأكثر من قرن من الزمان، وكان قادتها وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين من كبار رجال القلوب والأرواح المضيئة، وقد أَلِف المؤرخون أن يذكروا فضل "يوسف بن تاشفين"؛ الذي ضم الأندلس إلى المغرب، وأنقذ الأندلس من عصر الطوائف سنة (٤٧٩هـ)؛ لكن ابن عمه الزاهد العظيم "أبا بكر بن عمر اللمتوني" يعد من وجهة نظري أعظم رجال دولة المرابطين، وحسبُه أنه بنى ألف رباط في ستة آلاف كيلومتر داخل إفريقيا الغربية والوسطى والشرقية، كان في داخل كل رباط منها رهبان بالليل وفرسان بالنهار، ينشرون العلم الشرعي، ويدعون الناس إلى الإسلام... فدخلت أعداد غفيرة في الإسلام على يد هذا الرجل الذي زهد في الملك والاستقرار، وتركه لابن عمه "يوسف بن تاشفين"، وظل يجاهد حتى

لقي الله شهيداً بعد ثمانية عشر عاماً من الجهاد بالكلمة، والذكر، وفقه القرآن، وتربية الناس تربية روحية جهادية في سياق واحد بالمعنى الشمولي للجهاد.

وأكتفي بهذا النموذج في إطار الحديث عن الدولة التي وهبت نفسها لخدمة الإسلام بإحياء الروح والقلب، والزهد، وإيثار الآخرة، أما دور الزهاد والصوفية الملتزمة بالكتاب والسنة، والتجار الصادقين، الأمناء في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا وإفريقيا فهو دورٌ عظيم لا يمكن إنكاره؛ لأن أكثر هذه الدول لم يدخلها جيش فاتح يحمل السيوف، وإنما دخلتها جيوش العُبَّاد والزهاد والتجار التي نذرت نفسها، وباعت نفسها وما تملك من نفس، ومال لله؛ فربحت الدنيا والآخرة.

فلما انحسرت الروح، وانخفض صوت الضمير، ووقع الانقطاع عن المصادر أصبحت الروح عند بعضهم لا تقوى إلا إذا ضعف العقل، ولا تزدهر إلى إذا ضعف الجسد، ولا تعمر الآخرة إلا بخراب الدنيا، وأصبحت المصطلحات الرائعة التي تهذب النفس مثل: التقرب إلى الله بالحاجة وإظهارِ الفقر والزهد بين يديه ﷻ منحرفة عن إطارها النفسي والتعبدي، إلى منهج للسلوك، وهجر العلم والعمل، وإيثار للشكل على المضمون، وللصور على الحقائق!!

وعندما أبصر الإمام بديع الزمان سعيد النورسيّ (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م-١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) خريطة العالم الإسلامي أحزنه ما انحدر إليه المسلمون من إماتتهم لحقائق الإسلام، وجعلِهم هذه الحقائق المتكاملة المتصلة بمجال القلب والعقل والروح والجسد والمادة؛ تبدو كأنها حقائق متناقضة، مع أنها كلها -قلباً، وعقلاً، وجسداً- تخضع للمنهجية القرآنية التي تهدي للتي هي أقوم، وتعطي كل جانب حقه بلا إفراط أو تفريط، ورأى الشيخ بثاقب نظره أن انحطاط المسلمين وتمزقهم وتخلفهم ليس إلا ثمرة لهذا الانحراف الكامن في النفوس والأعماق والبذور، وأن علاج الثمار الاجتماعية أو الاقتصادية أو العائلية أو التربوية لا يؤتي أكله إلا بالعودة الرشيدة إلى المنابع الأولى التي أحسن صَنعها وتركيبَ عناصرها الخالقُ العظيم من خلال دستوره وكتابه الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِه﴾(فصلت:٤٢)، والذي أنزله على عبده ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾؛ بل جعله كتاباً ﴿قَيِّماً﴾ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ومن خلال سيرة رسول الله ﷺ الذي قدم التطبيق الحي المتوازن، الشامل لكل عناصر الحياة الدنيوية والإيمانية والروحية.

وانتهى الشيخ سعيد إلى أن الأمر يقتضي البعد عن الانغماس في تيار من التيارات، أو طريق من الطرق؛ بل لابد من العودة من جديد إلى الطريقة الأصل والأم؛ وهي طريقة القرآن والسنة التي صنعت خير أمة، والتي لخصها في عبارة رائعة أصبحت من معالم فكره وهي: "وحِّد القبلة"... أي اتبع إماما ومرشدا واحدا، ولا تنشغل بغيره.

ولكن... لماذا توحيد القبلة؟

يقول النورسيّ: "إن بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلها، وشمس هذه الكواكب السيارة، إنما هو القرآن الكريم؛ فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم.. فالقرآن هو أسمى مرشد، وأقدس أستاذ على الإطلاق.. ومنذ ذلك اليوم أقبلتُ على القرآن واعتصمت به واستمددت منه.. فاستعدادي الناقص قاصر من أن يرتشف حق الارتشاف فيض ذلك المرشد الحقيقي الذي هو كالنبع السلسبيل الباعث على الحياة، ولكن بفضل ذلك الفيض نفسه يمكننا أن نبين ذلك الفيض، وذلك السلسبيل لأهل القلوب وأصحاب الأحوال، كلّ حسب درجته.

فـ"الكلمات" والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها؛ بل أيضا مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية".[1]

ولا انفصال بين القرآن والسنة إلا في أذهان العميان الضالين.. فالسنة أيضا داخلة في توحيد القبلة.

يقول النورسيّ: "إني شاهدت في سيري في الظلمات السُنَن السَّنية نجوماً

(١) سيرة ذاتية، بديع الزمان النورسي.

ومصابيح، كل سنة وكل حد شرعي يتلمع بين ما لا يُحصر من الطرق المظلمة المضلة... وبالانحراف عن السنة يصير المرء لعبة الشياطين، ومركبَ الأوهام، ومعرضَ الأهوال، ومطيةَ الأثقال -أمثالِ الجبال- التي تحملها السنة عنه لو اتبعها.

وشاهدتُ السنن كالحبال المتدلية من السماء؛ من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها، واعتمد على العقل الدائر بين الناس، كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمق فرعون بـ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾(غافر:٣٦)".[1]

توحيد المنهج والغاية بعد توحيد القبلة

عندما ينجح رجال الله المخلصون للقرآن والسنة في "توحيد القبلة" كما يدعو الشيخ بديع الزمان سعيد النورسيّ، يكونون قد وضعوا أقدام الأمة -من خلال أهل القلوب والأرواح والحقيقة الممزوجة بالشريعة، والعبادة الموجَّهة للمعاملة- على الطريق الصحيح للإقلاع الحضاري، وتجاوز مرحلة التيه الفكري والانحراف السلوكي..

لقد عشتُ مع كثير من رجال التصوف المنتشرين في جنوب مصر بخاصة، وفي كثير من البلاد... ورأيت من حماسهم العاطفي، ونقاء سرائرهم ما جعلني أهيب بهم، وبمشايخهم بأن يضعوا برامج للإصلاح الاجتماعي والتربوي والأخلاقي للأمة، ينفّذونه هم، ويربّون أتباعهم على منهاجه، بحيث يشعر الناس بوجودهم بينهم، وبحيث يستأنفون دورهم الدعويّ والتربويّ والسلوكيّ الذي مكنهم من إقامة جماعات ودول إفريقية وأسيوية كثيرة؛ بل إن كثيراً من الطرق الصوفية كان لها دورها في الحفاظ على الإسلام داخل الاتحاد السوفيتي أيام القهر الشيوعي، وكذلك في العالم التركي أيامَ سيطرة موجات الإلحاد والانحلال..

لقد كنت أسأل هؤلاء الصوفية المخلصين:

لماذا لا يقيمون مدارس ومؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية وجامعات

---

(١) المصدر السابق ص١٦٥.

ووسائل إعلام مقروءة أو مسموعة أو مرئية في أوطانهم أو خارج حدودها؟

إنني على يقين من أن النورسيّ عندما قرر في مرحلته الأخيرة (السعيد الجديد) أن يهجر السياسية وفنونها الكذوب الملّتوية، وأنْ يغوص في أعماق الوجدان والروح، وأن يقرأ القرآن بعين القلب والعقل معاً؛ لبعث الأمة، وهدم صروح الإلحاد، وإقامة بناء الإيمان بدءاً من البذور والأعماق...

إنني لعلى يقين من أنه فكَّر فيما فكرتُ فيه وأطرحه اليوم، وهو ما طرحته في ساحات الطرق الصوفية من قبل... لقد رأى النورسيّ -بثاقب نظره- أن الطريق إلى القيام بهذا الدور يبدأ من تنقية الطرق نفسها مما لحق بها من شوائب فكرية وسلوكية، ومن أدعياء يتاجرون بشعار التصوّف ولا يرتبطون به روحا ومنهجا.

وهنا نرى النورسيّ يلجأ إلى الإمام الربانيّ العظيم أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي الفاروقي (٩٧١-١٠٣٤هـ) الملقب بمجدد الألف الثاني، والذي أنقذ الله على يديه الإسلام في الهند من نزعات التحريف التي اخترعها الإمبراطور الهندي المغولي "جلال الدين أكْبر" (٩٦٣-١٠١٣هـ/١٥٦٦-١٦٠٥م)، عن طريق إعادة الحياة إلى الروح بالإيمان في نفوس الصفوة وفكرها.. بأفضل الطرق في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

لقد قال الإمام الربانيّ المجدد أحمد السرهندي:

"إنني أرجّح وضوح مسألة من الحقائق الإيمانية وانكشافها على آلاف من الأذواق والمواجيد والكرامات".

وقال أيضاً: "إن منتهى الطرق الصوفية كافة هو وضوح الحقائق الإيمانية وانجلاؤها".

وقال أيضاً: "إن السلوك في الطريقة النقشبندية يسير على جناحين: الاعتقاد الصحيح بالحقائق الإيمانية، والعمل التام بالفرائض الدينية؛ فإذا ما حدث خلل وقصور في أيٍّ من هذين الجناحين يتعذر السير في ذلك الطريق".

بمعنى أن الطريقة النقشبندية لها ثلاثة مشاهد:

أولها وأسبقها وأعظمها: هو خدمة الحقائق الإيمانية خدمة مباشرة، تلك الخدمة التي سلكها الإمام الربانيّ في أخريات أيامه.

الثاني: خدمة الفرائض الدينية، والسنة النبوية تحت ستار الطريقة.

الثالث: السعي لإزالة الأمراض القلبية عن طريق التصوّف والسير بخطى القلب.

فالأول من هذه الطرق هو بحكم الفرض، والثاني بحكم الواجب، والثالث بحكم السُنّة.

وبوضوح أكثر، يحدِّد النورسيّ لكل المنتمين إلى التصوف الطريق الصحيح قائلاً: "لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوّف، فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة، فالتصوف فاكهة والحقائق الإسلامية خبز".[1]

والحق أننا عندما نرى النورسيّ يتحدث عن النقشبندية بهذا المنهج، إنما نستشعر منه ذكاءً غير عاديّ في جهوده لإعادة هذه الطريقة، -وكل الطرق المخلصة- إلى ثوابتها التي أنشأها منشئوها عليها.. إنه يُلبسها لباس الإيمان والتقوى الصادقَين.

وكأنه يقول لكثير من أتباعها وأتباع الطرق بعامة:

هذه هي حقيقة التصوف.. فكونوا كذلك أو ارْحلوا بعيداً، واتركوا التصوف قائماً على ثوابته، ولا تهدموه، وتؤذوه وتبغّضوا الناس فيه بشوائبكم، ومظاهركم التي لا تشرّف الإسلام ولا التصوف الصحيح!!

إن الحقائق الإيمانية هي الأهم والأعم.. أما أذواقكم وكراماتكم فشيء يجب أن تحتفظوا به لأنفسكم ولا تتاجروا به.

إن الغاية الكبرى للطرق الصوفية هي تجلية الحقائق الإيمانية قولاً وفعلاً ومظهراً وجوهراً...

ولهذا يقوم السلوك الصوفي على ركنين: الاعتقاد بالحقائق الإيمانية، والعلم

(١) المكتوبات، بديع الزمان النورسي، المكتوب الخامس.

التام بالفرائض الدينية... وإلا فهو بدع باطلة، ونحل فاسدة، وتدمير للقلب والعقل المؤمنين.. وانحراف عن المنهج والغايات.. ومن البَدَهيّ -كما يقول النورسيّ- أن الناس يدخلون الجنة بالإيمان.. وليس بالتصوف، ما لم يكن هذا التصوف ملتزماً بحقائق الإيمان... فإما أن يستقيم المتصوفة على الكتاب والسنة، وإلا فإن تصوفهم مردود عليهم. إننا نجد في هذه التوجيهات النورسيّة إصلاحاً هادئاً لمسار التصوّف، وفضحاً للمنحرفين بالتصوّف عن منهجه وغاياته.!!

خروج بعض الصوفية عن الشريعة الإسلامية... الأسباب والعلاج

يتناول العلامة بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) بعض عوامل الانحراف عن الشريعة لدى بعض الصوفية... ويقدم العلاج أيضاً...

فعندما تتحول "الطريقة الصوفية" من وسيلة إلى غاية، وعندما تصبح "الحقيقة" نفياً وإلغاءً للشريعة، وعندما يصبح "الشيخ" بديلاً للمرجعية الإسلامية الأصولية قرآناً وسنة، ويصبح "المريد" كالجثّة بين يدي شيخه، بلا عقل ولا إرادة ولا حياة.. عندما يقع هذا يجب علينا أن نجاهد في سبيل إخراج هذه المفاهيم وأصحابها المصرّين عليها من دائرة التصوف والشريعة.. بل والإسلام كله في كثير من الأحايين...

ولا يغيبنّ عن بالنا أن عددا من الأولياء وكبار المتصوفة قد أُعدموا -بحقٍ- بسيف الشريعة؛ لأنهم ظنّوا -وآمنوا- بأنه يمكن الوصول إلى الأنوار الحقيقية للحقيقة خارج الصراط الذي اختطّه الرسول الكريم ﷺ، ومن دون اتباع هديه وخطواته، فاختطوا لأنفسهم هدْياً غير هديه، وبدعا غير سنّته... بينما هو ﷺ الممثل الأعظم للقرآن الكريم، وللأنبياء جمعيا، وقد خاطبه الله سبحانه باسم البشرية وممثلاً عنها، فلابد ألاَّ تسير البشرية خارج الصراط الذي بيّنه، فالانضواء تحت لوائه ضروري"،[1] فليس بالجذب والكرامة والوجد والرؤيا يُحكم على الكتاب والسنة، ولكن سنّة الرسول التي هي الممثل والقدوة، والتطبيق الكامل

(١) المصدر السابق ص٥٨٥.

للقرآن هي الحاكمة على الجذب والكرامة والوجد والرؤيا.. إذا ما قرّر أصحابها الخروج بها من دائرة الخُصوص إلى دائرة العموم والشيوع!!

إن هذا الصنف هو الصنف الأول الخارج من نطاق الشريعة، مهما تكن درجة أحواله أو استغراقه أو جذبه أو سكره.. ما دام لا ينقاد للتكاليف.[1] ولكن هذا الخروج لا ينشأ من عدم الرضى بالشرع، أو من رفض الأحكام الشرعية؛ بل بتركه تلك الأحكام اضطراراً دون إرادة منه؛ فهناك أولياء من هذا القسم، فضلاً عن أن أولياء كباراً قد قضوا فترة بينهم متلبسين بهذه الحال، إما لعدم تفكرهم بها، أو لعدم استطاعتهم التوجه إليها، أو لعدم تمكنهم من معرفتها، أو عدم فهمها، فهم خارجون من الشريعة في هذا المستوى دون الوصول إلى الكفر الصريح، ولكن إذا عرفها أحد منهم، ورفضها فقد هلك.

أما القسم الثاني: فهم المنجذبون لنشوة الأذواق البراقة للطريقة والحقيقة، فلا يبالون بالحقائق الشرعية التي هي أرقى من مستوى مذاقهم، ويعتبرها أحدهم غير ذات مذاق لعجزه عن بلوغها، ويبلغ به الأمر تدريجياً إلى أن يظن أن الشريعة مجرد قشر ظاهري، وأن ما وجده من الحقيقة هو الأساس والغاية والقصد، فيقول: "حسبي ما وجدته"، فيقوم بأفعال مخالفة لما يأمر به الشرع..[2] وبهذا يصل إلى الكفر الصريح.

مدارج الانحراف

لم يكتف بديع الزمان النورسيّ بحصر الخارجين عن الشريعة، وهم يحسبون أنهم صوفية يحسنون صنعاً، ولم يكتف ببيان المنهج الصوفي الصحيح المرتبط بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وهو منهاج "توحيد القبلة" على أساس القرآن والسنة الشريفة التي هي التطبيق الحيّ للقرآن. فهما -أي القرآن والسنة- لا ينفصلان ولا يفترقان.. وهما القبلة الواحدة القادرة على قيادة المسلم وإرشاده في هذه العصر الذي يقوده إعصار معنوي رهيب.. فهما مؤشر البوصلة الذي

(١) المصدر السابق ص٥٨٦.

(٢) المصدر السابق ص٥٨٦.

يبين اتجاه حركة السفن.. وبدونهما يتخبط الإنسان في طرق مظلمة حتى يهلك ويغرق ويهبط إلى أسفل سافلين!!

أجل، إن أسطع ما في طبقات الأولياء -كما يقول الإمام الربانيّ السرهندي- وأرقاهم وألطفهم وآمنهم هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة، حتى كان الأولياء العوام لتلك الطبقة يَظهرون أكثر بهاء واحتشاماً من الأولياء الخواص لسائر الطبقات.

ويعلق النورسي قائلاً: نعم، إن الإمام الربانيّ مجدد الألف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ.(١)

لم يكتف النورسيّ ببيان القواعد الإيمانية الثابتة للتصوف الحق، وبيان الخارجين على الشريعة من أدعياء التصوف، وإنما تتبع مراحل الانزلاق، الذي تكون خطوته الأولى: هجر الأصول والثوابت والانفصال عنها، قرآناً وسنة... وخطوته الثانية: "عدم توحيد القبلة" والتلقي عن مشارب متناقضة بعيدة عن الثوابت بتأثير البدع والأهواء، وعبادة الأشخاص، وإغلاق العقل والقلب... وخطوته الثالثة: القعود عن الجهاد للوصول إلى علم اليقين بالعقل والوحي والبراهين وعين اليقين عن طريق استيعاب القراءة الكونية، وحق اليقين، وهو الإيمان العميق الذي لا تنال منه جيوش الشبهات ولا الماديات.. ويعيش ببصره في الأرض لكنه يعيش ببصيرته في السماوات.

أما خطوته الرابعة: فتتمثل في سيطرة الغفلة الباردة، وترك التزكية المستمرة للنفس والتفكرِ والتدبّر في القرآن أو في الكون.. بالوجدان والعقل معاً؛ تخلصاً من آفات الغرور والكبر، وشعوراً بالعجز والفقر والافتقار الدائم أمام خزينة العناية الإلهية، وفاقاً لتوجيهات الدستور القرآني المتمثل في الآيات القرآنية التالية: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾(النجم:٣٢)، ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(الحشر:١٩)، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

(١) سيرة ذاتية، بديع الزمان النورسي ص١٦٦.

فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء:٧٩)، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨)، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩).

وهي آيات (بنود) تمثل مراحل التزكية الموصلة للإيمان والتسليم بما يقدره الله سبحانه على الإنسان في الدنيا... على أساس أن "الباقي -وحده- هو الباقي"...

أما الخطوة الخامسة في مدارج الانحدار: فهي البدع التي يبتدعها المبتدعون -بحسن نية أو سوء نية- على أنها من الدين، وتنطلي على السذّج من المؤمنين، إلا أنها قلما تفوت أصحاب البصيرة من النَقَدَة الذين ينقدون مسائل الدين، ويعرفون الزائف منها والأصيل، كما يعرف نَقَدة الصاغة الذهبَ الخالص من غيره، والذواقون منهم يكادون يميزون الدخيل على الدين ذوقاً وفطرة كما تُميّز الأُذن المذواقُ النَّغمةَ النشاز في اللحن الموزون.

وقد حذّر الرسول الكريم ﷺ من الابتداع في الدين، وتَوعد المبتدعين بعذاب أليم يوم القيام، والخلودِ في نار جهنم؛ لأن الابتداع في الدين يفتح الباب واسعاً أمام الأهواء البشرية لتُغيّر في دين الله وتبدّل وتنسخ كما يحلو لها، كما أن تدخّل الهوى البشري، وابتداعه في الدين يفقد الدين أخص خصائصه، وهو الثبات الذي تصحح به المسارات، وتستقيم عليه كل معوجات الإنسان.[1]

ومن ثم -وفي ضوء خطواتِ أو مدارج الانزلاق أو الانحراف التي اقتبسناها من فكر النورسيّ بطريقة إجمالية- نجد النورسيّ يضع أيدينا على انحرافات تفصيلية محددة، أو كما يسميها هو "الورطات" التي دفعت بعض المحسوبين على التصوف دفعا إلى السقوط في الهاوية.

والورطة الأولى من هذه الورطات التي يَسقط فيها سالكون من الطرق الصوفية (من لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح) هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة.[2]

---

(١) السنة النبوية سنة كونية وحقيقة روحية، أديب إبراهيم الدباغ ص٥٤-٥٥، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار النيل للطباعة والنشر، تركيا.

(٢) المكتوبات، بديع الزمان النورسي ص٥٨٨.

والورطة الثانية: وهي تفضيل قسم من المفرطين، الأولياءَ على الصحابة الكرام ﷺ؛ بل رؤيتهم الأولياء في مرتبة الأنبياء عليهم السلام.[1]

والورطة الثالثة: هي ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة لأوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة الشريفة، فيَسقطون بذلك إلى مُنزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، مع أن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة، إذ كما أن فرضا واحدا يَرْجَح ألفا من السنن، فإن سنة واحدة من السنن النبوية ترجح ألفاً من آداب التصوف.[2]

والورطة الرابعة: أن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون –خطأ- أن "الإلهام" بمرتبة "الوحي" كما يعتبرون الإلهام نوعا من أنواع الوحي، فيَسقطون في هذا المزلق الخطير.[3]

وأما الورطة الخامسة: فهي أن بعض المتصوفين ممن لم يدركوا تماما سر الطريقة -في كونها وسيلة، وليست غاية بحد ذاتها- قد ينجذبون، ويتوجهون إلى ما يفاض عليهم من الكرامات والأذواق والأنوار، فينجرّون إلى تفضيل تلك الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين والخدمة تحت لوائه وقراءة الأذكار والأوراد، فيسقطون في هذا المنزلق.[4]

والورطة السادسة: وهي المنزلق الذي يقع فيه قسم من سالكي الطرق الصوفية من غير أهل الحقيقة عندما يلتبس عليهم الأمر فيتوهمون بأن ظلال مقامات الولاية ونماذجها المصغرة كأنها هي المقام الحقيقي والكليّ والأصلي...

إن هؤلاء يرون أن لمقام النبوة، وكبار الأولياء، شيئاً من الظلال التي يمكن لأهل الطرق أن يستظلوا بها، ولكنهم يظنون أثناء دخولهم فيها أنهم أعظم درجة

---

(١) المصدر السابق ص٥٨٨.

(٢) المصدر السابق ص٥٨٨.

(٣) المصدر السابق ص٥٨٩.

(٤) المصدر السابق ص٥٨٩.

من كبار الأولياء؛ بل حتى من الأنبياء -والعياذ بالله- فيسقطون في مزلق.[1]

وأما السابعة: وهي المزلق الذي يقع فيه قسم من أهل الأذواق والأشواق من أصحاب الطرق عندما ينصرفون إلى الفخر والادعاء وإشاعة الشطحات وطلبِ توجه الناس ونيل المرجعيات الدينية، ويفضلون هذه العجالات على الشكر والتضرع والحمد والاستغناء عن الناس.[2]

والورطة الثامنة: وهي الورطة التي يتورط فيها قسم من المتعجلين والقاصدين المنافع الذاتية من أهل الطرق من الذين يرغبون في تناول ثمرات الولاية في الدنيا بدلاً من قطفها في الآخرة، وهم بهذه النية يكونون فعلاً قد سقطوا في هذه الورطة، علماً أن آيات كثيرة في القرآن الكريم من أمثال ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(آل عمران:١٨٥) تدل بوضوح على أن ثمرة واحدة من ثمرات عالم البقاء ترجح ألف بستان في هذه الحياة الفانية.[3]

وهكذا ومن خلال هذا الحصر النفسي الرائع العميق الدلالة لمدارج الانزلاق وورطاته مع الفقه البصير بالتصوف الصحيح، والتصوف المغشوش عند النورسيّ يتجلّى لنا -بعلم اليقين- كيف كان النورسيّ حصيفاً في علاجه لأمراض بعض الصوفية، وكيف كان واعياً بثوابت التصوف الإسلامي، وموازينه ومرجعياته...

ومما لا شك فيه أن النورسيّ إنما يقوم بتوضيح كل ذلك في سبيل إعادة التصوف السُنّيّ الصحيح إلى دوره العظيم في نهضة المسلمين، ونشر الإسلام بين العالمين.. في ذلك العالم المعاصر الذي ضاعت فيه الروح، واختنق الضمير، وقَطَعَ معظم الناس فيه العلائق مع الله وعبدوا المادة. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(البينة:٥).

---

(١) المصدر السابق ص٥٨٩-٥٩٠.

(٢) المصدر السابق ص٥٩٠.

(٣) المصدر السابق ص٥٩٠-٥٩١.